الفصل الخامس

حفريات المعرفة عند فوكو

إن «الباحث في حفريات» المعرفة هو من يسأل، خارج دوائر الحقيقة المثالية، مدفوعاً برغبة يسيرة إلى كتابة ضمانات الحقيقة أو كشف دلالتها ـ يسأل عما جعل المعارف المختلفة متاحة للناس. لقد كان في وسع المرء في القرن الثامن عشر أن يعرف شيئاً عن الجنون والحماقة؛ أما اليوم فإنه يستطيع أن يعرف شيئاً عن المرض العقلي. وفي زمن ما كان من الممكن أن تعد اللغة أداة لتسمية الأشياء، وأن يجرى البحث في الأسماء المهملة التي شكلت كلمات من عدة مقاطع؛ ثم صار في وسع المرء في زمن لاحق أن يبحث في الأصوات اللغوية. وقد طور فوكو من خلال عدد من الدراسات التي أجراها في حقبة الستينيات «علماً للآثار»* Archaeology، عرض فيه بالبحث لتلك النقلات التي حدثت في الفكر الغربي على مدى الأعوام الأربعمائة الماضية. وقد أخذت دراساته على عاتقها تفسير بعض التحولات التاريخية التي كانت ـ على نحو أو آخر ـ «ضرورية وكافية لأن تجعل الناس يؤثرون استخدام هذه الكلمات على تلك، واستخدام نمط بعينه من الخطاب على نمط آخر»، أو كانت كافية «لأن يتمكن الناس من النظر من هذه الزاوية وتلك، وليس من زاوية أخرى» (فوكو ١٩٧٧هـ، مجموعة ١٩٨٠، ص٢١١).

لقد تغيرت المعارف منذ عصر النهضة نفسه تغيراً كبيراً؛ فمنذ أكثر من مائتي عام مضت لم يكن هناك سوى قدر يسير من ميادين المعرفة التي تدور الآن حول الكائن البشري، بدءاً من الطب النفسي وانتهاءً بالنقد الأدبي. ومن موقع الاختلاف مع هذه الميادين ذات الاهتمام الإنساني تطورت «حفريات» فوكو، وكانت مناهجها أحرى أن تتناول هذه الميادين على وجه الخصوص من أن تتناول العلوم المادية. على أن هذه الخصوصية ليست في ذاتها تحديداً لها؛ فإن ما يحدد حفرياته حقاً هو أنها كتبت قبل الفتح العلمي الذي أحرزته مقالة أ د أ في دراسة

* من الواضح أن فوكو نقل المصطلح من دلالته على «الآثار» المادية لكي يدل على الآثار المعنوية (المعرفية)؛ ومن ثم جرى العرف على ترجمة هذا المصطلح بالحفريات. (المترجم).

المعانى كيف يتم بناؤها مادياً، ومع التحول المفاجئ نحو هذا الفتح. ومعنى هذا أن هذه الحفريات لاتشتمل على أى معنى للتعارض بين الخطابات، أو أى معنى للصراع من أجل الحصول على المعارف، وفيما بين المعارف بعضها وبعض. ومن جهة أخرى فإن ما يجعل لهذه الحفريات أهمية كبيرة هو فاعليتها الخطيرة؛ فهى تعمل على وجه الخصوص على تجريد الموضوعات العامة والواضحة، الخاصة بما يلائم تاريخ الأفكار. وإذ يخترع تاريخ الأفكار قصة تدور حول المعارف عن التجربة التى شارك فيها كل عصر، المتمثلة فى التكشف المتنامى لأفكار الناس وكشوفهم الرتيبة لحقيقة الأشياء، فإن هذا التاريخ كان ـ على مدى زمن طويل ـ عقبة فى طريق أى بحث آخر. وقد وقفت مشاريع فوكو فى الستينيات ضد هذا، كما أنه حدد فى كتابه «حفريات المعرفة» (١٩٦٩، ترجمة ١٩٧٢) الفاعلية الخطيرة لهذه المشاريع؛ «فالوصف الحفرى هو على وجه التحديد ذلك التخلى عن تاريخ الأفكار، أى الرفض المنهجى لفروضه وإجراءاته، ومحاولة لمباشرة تاريخ لما قاله الناس مختلف حقاً» (ص ١٣٨). وقد كان استبعاد موضوعات الاستمرارية والتعبير والانعكاس ـ التى هى فى مجموعها موضوعات مثالية الطابع آخر الأمر ـ عملاً أساسياً وليس عملاً هيناً.

وسوف أبين فى هذا الفصل، أولاً وقبل كل شىء، كيف أن كتابات فوكو المبكرة يمكن أن تفهم على أساس أنها تتعقب الموضوعات فى تاريخ الأفكار وتجردها؛ تلك الموضوعات التى تقف عقبة فى طريق البحث ذى التوجه المادى، وإلى جانب ما تمنحنا مشاريعه من نهج نقدى فإن هذه المشاريع تطرح كذلك مقترحات جديدة، ولكننى أود أن أذهب إلى أن هذه المقترحات مفيدة بصفة أساسية من حيث الصعوبات التى تواجهها بسبب إخفاقها فى إدراك مبادئ التعارض والصراع. وهنا لا نجد سوى فائدة محدودة للاستعراض الكامل بكل معانى الكلمة لبحث فوكو فى حقبة الستينيات؛ الاستعراض الذى يجعل الكتابة خاضعة لرقابة كل ما يعد المعنى النهائى لدى المؤلف. وهذا النوع من التوثيق مثالى، كما أن إضفاء الترابط الوهمى على الكتابات المبكرة، حيث يُفتعل المعنى الكلى لها وفقاً لهدف ما، سيكون أقرب إلى الإيماءة الساخرة، ومع ذلك فإن الاشتغال بالتأليف ليس مجرد وهم؛ فكتابات فوكو تنتشر حاملة اسمه؛ وهى لهذا تكتسب شرعية وجودها. ومن أجل هذا سيكون اهتمامى بجملة المجادلات التى اشتملت عليها هذه الكتابات، ولن يقتصر من هذه المجادلات على أكثرها نفعاً، وسوف يكون من الخطأ إغفال ما لهذه الكتابات من انتشار، للتهوين من آثارها.

تفكيك تاريخ الأفكار

من السهل بطبيعة الحال كتابة تاريخ الأفكار والمعالجات التى تناولت موضوع الجنون ؛ فليس بالمرء عندئذ حاجة إلى أكثر من أن يحكى الحكاية السعيدة الخاصة بالأفكار والكشوف السابقة ، كيف شقت طريقها فى بطء ، مرتكبة بعض الأخطاء المغتفرة ، نحو حقائق الطب النفسى الحالية ، ذلك بأن المرض العقلى ـ فيما ترويه الحكاية ـ له طبيعة جوهرية تعكسها المعرفة ، وتعكسها المعرفة الحالية إلى أبعد حد ، ولابد من أن يُهنأ الطب النفسى على ما حقق من إنجازات ، ولكن هناك مشكلة صغيرة تتعلق بهذه الحكاية ؛ فهى ـ أى الحكاية ـ ترسم دائرة كاملة تمتد من الحاضر إلى الماضى وتعود إلى الحاضر ، كما لو أن شيئاً لا يتغير قط فى الواقع . ومن هنا فإن دراسة فوكو لتاريخ الجنون ، التى تختلف بعض الشىء ، وذلك فى كتابه *الجنون والحضارة* **Madness and Civilization** (١٩٦١ ، ترجمة ١٩٦٧) ـ هذه الدراسة تقدم رفضاً لهذا الموضوع المثالى جديراً بالنظر حقاً(١) ، لقد تم رفض السيناريوهات الجاهزة للحكاية الرسمية ، وتم معه رفض أية فكرة تذهب إلى أن المعرفة انعكاس لجوهر الأشياء .

بادئ ذى بدء تحدد دراسة فوكو هذه ، عن طريق العودة إلى العصر الكلاسيكى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، نوعاً ما من القطيعة وقع قبل ظهور المصحات (البيمارستانات) والطب النفسى ؛ فهذه الدراسة تعد عام ١٦٥٦ والمرسوم الملكى بتأسيس المستشفى العام فى باريس «مَعلماً» ، أى بداية الحبس العظيم الذى كان على مدى قرن ونصف قرن ، لا فى فرنسا وحدها بل عبر أوروبا ، يعنى «تخصيص موطن واحد للفقراء والعاطلين والسجناء والمجانين» (ص٣٩) . وهكذا لا يبدأ الوصف عند فوكو من طبيعة المرض العقلى والسؤال عن كيفية انعكاس هذا انعكاساً حقيقياً فى الفكر الكلاسيكى ، ولكنه يبدأ من المؤسسات التى سجنت المجانين وجعلتهم فى وضع يماثل إلى حد كبير وضع أولئك الذين وصموا بنوع من «الحماقة» ، كما هو شأن «الآباء السفهاء المبذرين» ، وكل أولئك العاطلين عن العمل (ص ٦٥) . ومن هذا يصل الوصف إلى المعانى العامة المرتبطة بكل أولئك الذين سجنوا ؛ وذلك لأن دراسة فوكو تصف كيف أن أماكن السجن كانت ـ بإصرارها على العمل ـ أداة لمعاقبة الكسل ، ولإضفاء القيمة على «الوعى الأخلاقى بالعمل» (ص ٥٥) . ذلك بأن حصر الجنون فى هذه الأماكن كان يحمل معنى «العقم الاجتماعى» (ص ٥٨) . ويبين فوكو كذلك كيف يمكن ـ فى حدود الأماكن المخصصة للسجن ـ أن تنسب الممارسات الخاصة معانى إيديولوجية إضافية إلى الجنون ؛

فمن الممكن عرض المجانين - وقد جعلوا للمشاهدة - على أنهم «كائنات بشعة»؛ ويمكن مشاهدتهم مقيدين فى الأغلال خلف الأسوار كما لو كانوا «وحوشاً» و«حيوانات» (ص ٧٠ - ٢).

وبهذه الطريقة، ومن خلال البدء من السجن النظامى فى العصر الكلاسيكى، يمحو «تاريخ الجنون» عند فوكو فكرة أن السجن ومصحة الطب النفسى يعكسان نوعاً من الحقيقة الأبدية يتعلق بالنوع البشرى، لقد أغلق السجن الأبواب على عدد يفوق كثيراً ما طالبت به المصحة على الإطلاق، كما أن المعانى التى ألحقت هناك بالمجانين هى من منظور الطب النفسى معانٍ غريبة للغاية. ومن هنا انصرفت دراسة فوكو إلى «الفكر الكلاسيكى»؛ فهى تشرح تفصيلاً كيف أن الجنون كان معترفاً به فى الفكر الكلاسيكى بقدر ما كانت ممارسات السجن معترفاً بها، بوصفه [أى هذا الجنون] نوعاً من «اللا وجود non- being» أو «العدم nothingness» (ص ١١٥ - ١٦). فالجنون لم يكن ينظر إليه بوصفه مرضاً عقلياً بقدر ما كان يعد خواء تسببه حالة الغيبوبة. إنه «العقل المغيب» (ص ١٠٨). وفحوى ما يذهب إليه هو أن الخبرة الكلاسيكية بالجنون «تبرز فى المعانى نفسها؛ فى النظام المماثل لمنطقها الداخلى؛ فى نظام التأمل فى الأمور ونظام المؤسسات كليهما؛ فى الخطاب والمرسوم على السواء؛ فى الكلمة والشعار كليهما» (ص ١١٦). وما يسميه فوكو هنا «نظام المؤسسات» و«نظام التفكير» يمكن تعيينهما، عن طريق استخدام مفاهيم المادية التاريخية، بأنهما الإيديولوجيا العملية والإيديولوجيا النظرية. وسوف أعود إلى هذا فى الفصل الآتى. ويكفى الآن ملاحظة أن التاريخ الذى ينتقل من أحد هذين الطرفين إلى الآخر يستطيع أن يفكك الفكرة القائلة إن المعرفة تصدر عن الأشياء وتعكس حقيقتها الجوهرية؛ فهذا التاريخ لايسلم بأى وجه من وجوه الصحة لموضوع الانعكاس هذا.

وتتمثل الاستجابة «الواضحة» لهذا فى الانتقال من الأشياء إلى وعى الناس، ذلك بأن تاريخ الأفكار يعتمد على موضوعة التعبير المثالية التى تفترض أن الناس وأفكارهم هم مصدر ما صار معروفاً، وفوق هذا تفكك الحفريات هذه الموضوعة؛ فدراسة فوكو للطب العيادى، التى تحمل عنوان *ميلاد العيادة* (١٩٦٣، ترجمة ١٩٧٣)، تقدم إلينا تفكيكاً لهذا الطب جديراً بالملاحظة. ومع مضى الزمن تغيرت حفرياته تغيراً طفيفاً؛ فهو إذ يركز على فرنسا، يمضى فيفحص العقود السابقة زمنياً على قيام الثورة الفرنسية، والمعاصرة لها، واللاحقة بها.

وخلال هذا التحول قدم فوكو على نحو تفصيلى الشروط المختلفة (الاقتصادية والسياسية والقانونية والإيديولوجية) التى نتجت عنها العيادة، مصحوبة بميدان جديد للمعرفة، هو ميدان الطب العيادى، وقد ذهب فى دعواه إلى أن «الطب قد ظهر بوصفه علماً عيادياً وفقاً لشروط تحدد ميدان تجربته وبنية منطقه، كما تحدد إمكاناته التاريخية (ص XV). وإذ بدأت دراسته بهذه الشروط، فإنها تحاشت الفكرة القائلة إن الطب العيادى يرجع فى أصله إلى أفكار الأطباء، ولكنها تصنع ما هو أكثر من هذا؛ فهى إذ تقاوم افتراض وجود وعى طبى كان له حقاً تأثيره فى الحقل العيادى، تشير إلى وعى طبى جديد، كيف تشكل واتخذ هيئته مصاحباً للعيادة، وبهذه الطريقة تكون دراسة فوكو قد شرعت فى النهوض بالمهمة الضخمة فى تفكيك الموضوعة القائلة إن المعرفة تعبير عن أفكار الناس.

ويتحول تاريخ الأفكار ـ فى اعتماده على موضوعات التعبير ـ إلى النزعتين الإنسانية والمثالية كلتيهما؛ فهو يفترض أن هناك ذاتاً إنسانية للتاريخ ـ فى الوقت الذى تكون فيه [هذه الذات الإنسانية] كذلك ذاتاً فى التاريخ ـ هى المديرة للأحداث على المسرح الذى تجد فيه [هذه الذات] نفسها. وهذه الذات تكون على الدوام ذكرا اسمه الإنسان، ولكى يحتفظ تاريخ الأفكار بهذا الإنسان ـ الإله الصغير ـ فإنه يفتعل سيناريوهاته الأساسية؛ «فالتاريخ المتواصل كيان لا غنى عنه، متعالق مع الوظيفة المؤسسة للذات، إنه الضمان لكون كل شىء ند عن هذه الذات يمكن إرجاعه إليها». (فوكو ١٩٦٩، ترجمة ١٩٧٢، ص ١٢). وفى مقابل السيناريو تميل حفريات فوكو إلى أن تعرض لحظات تاريخية مختلفة بعضها إلى جوار بعض، وأن تكشف بهذه الطريقة عن حالات من انقطاع المعرفة.

على أن هذا العرض لم يكن كافياً، ومن هنا فإن فوكو فى مشروعه التالى الذى يحمل عنوان نظام الأشياء (١٩٦٦، ترجمة ١٩٧٠) يخطو خطوة جديدة نحو تشتيت السيناريوهات، ولكن هذه الحركة كانت تشكل تراجعاً من جانب الحفريات، لأنها تميل إلى عزل المعارف عن الممارسات الاجتماعية الأخرى. وكتاب نظام الأشياء يواجه بعض الحقول المعرفية الحديثة، التى تركز على الإنسان، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وتحليل الأدب والأسطورة (ص ٣٥٧ ـ ٨). وتوحى حفرياته بأن شخص الإنسان الذى تركز عليه هذه الحقول المعرفية «هو اختراع حديث العهد، وأنه ربما كان يقترب من نهايته» (ص٣٨٧). ويتناول فوكو هذه الحقول المعرفية الإنسانية فى شىء من التحفظ؛ فهو يأخذ ثلاثة ألوان من

المعرفة، ترجع إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر ـ هى التاريخ الطبيعى، وتحليل الثروة، والنحو العام ـ تَنحى كل لون منها عند نهاية القرن الثامن عشر، مفسحاً الطريق لما سماه علوم الحياة والعمل واللغة. وتعد دراسته محاولة لوصف جانب من نظام التفكير الكلاسيكى، ولوصف جانب ـ فى مقابل ذلك ـ من النظام الحديث والتشكيل الخاص للمعارف الحديثة، التى مكنت حقول علم النفس، إلخ.، ومكنت شخصَ الإنسان الذى دارت حوله، من التطور. وهو ينشئ بين الكلاسيكى والحديث انقطاعاً أدى إلى تهاوى أساس الفكر الكلاسيكى؛ أدى إلى إحداث صدع «شق الأساس المعرفى **episteme** للعالم الغربى فى الصميم» (ص ٢٥٠).

ويمكن فهم الفكرة الجديدة هنا، أى «الأساس المعرفى» على أنه «أساس التفكير» الذى ستعد بعض التصريحات المبنية عليه فى زمن بعينه ـ دون غيرها ـ لوناً من المعرفة. وتفترض دراسة فوكو أن القواعد المحددة تشكل المعارف بما فيها من المفاهيم الخاصة بها؛ فهناك انتظام فى تطور هذه المعارف، وإن لم يكن مستخدموها على وعى بهذه القواعد، ومن هنا كان تحديد الأساس المعرفى فى حفريات المعرفة بأنه جُمّاع «العلاقات التى يمكن استكشافها بين العلوم فى حقبة بعينها»، وشبكة الروابط التى يمكن الوقوف عليها بين المعارف، «عندما يقوم المرء بتحليلها فى مستوى أشكال انتظامها الخطابى» (١٩٦٩، ترجمة ١٩٧٢، ص ١٩١). وهى فكرة تميل ـ على نحو ما يقول لوكور **Lecourt** ـ إلى الإيحاء بأن المعارف تتحقق فى «شرائح كبيرة تستجيب لقوانين بنيوية خاصة» (١٩٧٢، ترجمة ١٩٧٥، ص ١٨٩). وبعبارة أخرى فإن فكرة الأساس المعرفى أقرب إلى العمومية الخاصة، كما هو شأن القطيعة أو الصدع على نحو ما ورد وصفه فى *نظام الأشياء*. ولكن المشكلة الحقيقية فى فكرة الأساس المعرفى هى أنها تفتقد الصلات بين المعارف (كائناً ما كان نوعها، سواء أكانت إيديولوجيات نظرية أم كانت العلوم التى تروج بينها) والممارسات الاجتماعية الأخرى.

ولحسن الحظ أن كان هناك طريق آخر لتجنب السيناريوهات و«التاريخ الشامل» الذى ينطوى عليه تاريخ الأفكار. والواقع أن الإشارة إلى هذا الطريق الآخر قد وردت فى حفريات المعرفة على أنه «تقويض المركز» وفقاً للمنظور المادى (١٩٦٩، ترجمة ١٩٧٢، ص ١٢ ـ ١٣)، فلما كان التاريخ المادى يضع الصراع الطبقى فى مكان الصدارة، كان هذا التاريخ عاجزاً حقاً عن أن يرد كل تفكير إلى صيغة مفردة، أو أن يقتفى أثر سيناريو بسيط فى

تطوره، أو أن يجعل للمعرفة جمعاء مركزاً. ومن هنا فإن التاريخ المادى «للجنون» قد يدرس ـ كما صنعت حفريات فوكو ـ العلاقة بين الحبس والمعرفة الكلاسيكية للجنون، أما فيما يتعلق بالطب العيادى فإن هذا التاريخ قد يقدم على نحو مفصل الشروط الاقتصادية والاجتماعية المختلفة، التى صحبت ظهور العيادة، ولكن هذا التاريخ المادى قد يصنع ما هو أكثر من هذا؛ فهو إذ يضع الصراع الطبقى فى مكان الصدارة، يمكنه أن يصف سياسة المعرفة، وأن يدرس كيف أن المعارف فى علاقاتها بعضها ببعض فى مرحلة بعينها، وفى صلاتها بالمؤسسات، وفى شروطها التاريخية، قد شكلتها آخر الأمر الصراعات الطبقية. ومن هنا فإنه قد يدرس أشكال الصراع من أجل الحصول على المعارف، وأشكال الصراع الواقعة بين المعارف بعضها وبعض.

إن تاريخ المعارف القائمة ما يزال فى حاجة إلى أن يكتب(٢)؛ وقد شرعت حفريات فوكو فى إعداد مكان له؛ فهى تتحرك من أجل أن تقوض تلك الأفكار المثالية التى تذهب إلى أن المعرفة إجمالاً لها شكل مطرد يعبر عن أفكار الناس ويعكس حقيقة الأشياء، وهذه هى فائدتها الأساسية. وكل ما أرجو الإيحاء به الآن هو أن الحفريات تتقدم تجاه شروط المعارف القائمة، وأنها تتعثر فى سلسلة من العقبات على السواء. لماذا؟ لأنها تتكون مبدئياً من خطاب مضاد؛ فهى أحرى أن تكون نقضاً للموضوعات المثالية من أن تكون تحولاً أساسياً عنها.

شروط المعرفة

إن أكثر الجوانب إيجابية فى كتاب *الجنون والحضارة* هو التركيز على الصلات القائمة بين المعارف والمؤسسات، ذلك بأن تحليل فوكو ينزع إلى الإيحاء بأن ميلاد البيمارستان عند نهاية القرن الثامن عشر هو الذى مكن لظهور الطب النفسى. والواقع أن المرء فى وسعه أن يقول بناء على دراسة فوكو إن الممارسات فى البيمارستان قد عيَّنت ـ على نحو بعينه ـ أشكال المعرفة الخاصة بالطب النفسى وحدودها. ومع هذا فهناك كذلك بعض الفجوات أو لنقل السقطات فى عملية التحليل.

ولكى تكشف دراسة فوكو عن الشروط التى مكنت لظهور الطب النفسى، راحت تصف أولاً وقبل كل شىء، توقف الحبس العمومى قرب نهاية القرن الثامن عشر، وكان لهذا التوقف محددات عدة: أولاً، كانت هناك مقاومة من جانب أولئك المحبوسين للاختلاط مع المجانين

(١٩٦١ ، ترجمة ١٩٦٧ ، ص ٢٢٤) ؛ وثانياً تزايدت الحاجة إلى الفقراء للعمل مع اتساع نطاق الصناعة (ص ٢٣٢) ؛ وثالثاً ، أكدت القوانين البرجوازية ، التى وضعت فى أثناء الثورة فى فرنسا ، أن الحبس قد جُعل «للمجرمين والمجانين» فحسب ، فى الوقت الذى اقُترح فيه أن يكون لهؤلاء أماكن منفصلة (ص ٢٣٦ ـ ٧) . وقد عزا تحليل فوكو مولد البيمارستان إلى توقف الحبس هذا ، كما لو أن ذلك قد تفتق عن مكان يسمح للبيمارستان بالظهور ، ثم يتحول التحليل إلى فحص ما يجرى فى البيمارستان من ممارسات ، فيقف عند حالتين هما : إعادة تشكيل مبنى البيستر Bicetre على يد بينيل Pinel ليصبح بيمارستاناً للمجانين ؛ وإقامة تيوك Tuke لبيمارستان طائفة الأصدقاء المسيحية الإنجليزية English Quaker ، المعروف بالملجأ Retreat ، ويضيف كيف أن حياة البيمارستان فى كلتا الحالتين قد شكلت وفقاً لصيغ من الإيديولوجيا البرجوازية . وعلى سبيل المثال كان المجانين فى ملجأ تيوك يعاملون على أنهم أطفال ؛ فقد وضعوا تحت «وصاية أسرية» فى نموذج من العلاقات الأسرية ، «برجوازى» و«أبوى» على السواء . وكان «الطفل» المجنون يخضع فى الملجأ لسلطة الأب ولرعاية الراشد العاقل ؛ ذلك الراشد الذى يراد للطفل أن يصير مثله (ص ٢٥٢ ـ ٣) .

وفى الوقت الذى آثر الملجأ فيه الأسرة ، كان بيمارستان بينيل أكثر إعمالاً للقانون . وما تذهب إليه دراسة فوكو فى كلا الحالين هو أهمية «بنياتهما» التنظيمية بالنسبة إلى الطرق التى تَشكل بها الطب النفسى (وتشكل بها فيما بعد التحليل النفسى ، وإن كان ذلك على نحو مختلف بعض الشىء) . وهو يذهب إلى أن «البنيات» فى البيمارستان لم تكرِّس «العلم بل الشخصية» ؛ فهى تمنح الطبيب السلطة الكاملة بوصفه «أبا وقاضياً ؛ أى أسرة وقانوناً» (ص ٢٧١ ـ ٢) . ولما كان الطب النفسى قد اعتمد على هذه السلطة الشخصية فقد كان حرياً فى القرن التاسع عشر أن يصبح «طباً له أسلوبه الخاص» (ص ٢٧٥) . لقد أعاد الطب النفسى «القيم الأخلاقية» التى كانت جذورها فى بنيات البيمارستان العملية تغيب عن الأنظار على نحو متزايد مع تقدم الزمن فى ذلك القرن (ص ٢٧٥) . وقد قام التحليل النفسى فيما بعد بكشف الغموض فى كثير من هذا ، ولكنه مع ذلك استغل سلطة الطبيب أكبر استغلال ، وهيأ «لقدرتها غير المحدودة مكاناً شبه مقدس» ، يظل هو مفتاح التحليل النفسى (ص ٢٧٧) .

وتتمثل أهمية هذه الدراسة ، فى كتاب الجنون والحضارة ، فى افتراض أن الممارسات النظامية لها أسبقية على أشكال المعرفة ؛ فهى ترسم حدود النقلة من الحبس إلى البيمارستان ،

التى لم تكن نتيجة للمعرفة الجديدة، والواقع أنها تفترض أن «بنيات» البيمارستان قد قدمت الشكل الذى كان على الطب النفسى أن يتخذه، والذى ربما استعار منه التحليل النفسى ذاته أسراره.

وتتمثل صعوبة هذه الدراسة فى طريقة تحديدها لمولد البيمارستان؛ ففى الوقت الذى تم فيه الفهم الدقيق لمسألة توقف الحبس على أنه نتيجة للمقاومة، ولنضال طبقة البرجوازية، ولمطالب الصناعة الرأسمالية، كانت هناك محاولة لوضع البيمارستان الجديد خارج أى صراع أو أى علاقة تضاد. وهذا هو الخط الواضح بلا شك، الذى يمكن متابعته؛ فالنظام القديم قد انتهى خلال الصراع، وولد النظام الجديد من تلقاء ذاته بأعجوبة فريدة، ولكن الأثر الذى تتركه متابعة هذا الخط هو أن الدراسة تنزلق مرتدة إلى الموضوعات المثالية، التى أوقف بحثها على نحو ملحوظ وفقاً لمنظورات أخرى، وذلك عندما كانت تصف كيف اهتدى البيمارستان إلى ممارساته فى النظام الجديد. إن هذه الدراسة تصف البيمارستان فى بساطة بأنه انعكاس لأشكال من الإيديولوجيا البرجوازية القائمة فى مكان آخر؛ فالبنيات الأسرية فى ملجأ تيوك توصف بأنها «نوع من العالم الأصغر»، يصور فى نطاق محدود «الأسرة البرجوازية» (ص ٢٧٤، ٢٥٣). وكذلك لا يمكن لمؤسسة ما أن تتطابق فى بساطة مع مؤسسات أخرى إلا إذا كانت هناك ذاتٌ توجه التاريخ.

على أن هذه ليست هى الطريقة الوحيدة التى ينزلق فيها تفسير فوكو مرتداً إلى المزاعم التى يعارضها؛ فدراسته للممارسات الأسبق، الخاصة بالحبس وبالخطاب المتعلق بالجنون فى العصر الكلاسيكى، تشير إلى الترابط فيما بين هذه الممارسات؛ ولكن هذه الدراسة عندما تأخذ فى شرح كيفية هذا الترابط، ترتد فتقع على فكرة «التجربة»، وهى بذلك تعوّل كثيراً على «فهم اجتماعى، مألوف فى الثقافة الأوروبية»، هو تجربة الجنون الكلاسيكية» (ص٤٥، ١٩٧). ومرة أخرى تفترض هذه الفكرة الشبيهة بفكرة «رؤية العالم»، أى بالتجربة المألوفة لدى الجميع من أبناء العصر ـ تفترض أن هناك قوة متفردة، أى ذاتاً، توجه التاريخ:

وبصفة عامة اهتم كتاب الجنون والحضارة اهتماماً بالغا، وعلى نحو مبهم بعض الشىء، بما تم تحديده على أنه تجربة، [«experience»]، مبيناً كيف أننى كنت مع ذلك قريباً من تقبُّل أن تكون هناك ذات للتاريخ غفل من الاسم وعامة (فوكو ١٩٦٩، ص ٢٦ - ٧).

وهكذا ينزلق كتاب *الجنون والحضارة* مرتداً إلى بعض الموضوعات نفسها التى رفضها؛ وذلك لأنه لم يأخذ حذره الكافى، ومع ذلك فإن الدراسة تضعنا، لاسيما فيما يتعلق بالبيمارستان والطب النفسى، على طريق افتراض بالغ الأهمية، مؤداه أن الممارسات فى إطار المؤسسات لها الأسبقية على أشكال المعرفة.

إن المعرفة الخاصة بالطب النفسى «ملتبسة» للغاية، ومن السهل إبطالها (فوكو ١٩٧٧ب مجموعة ١٩٨٠، ص ١٠٩). أما الطب العيادى فأشد ما يكون تماسكاً، كما أنه لم يزعزعه التنقيب الأثرى. إن حفريات فوكو، المتعلقة بتحول الطب فى سنوات ما قبل الثورة فى فرنسا، وفى أثنائها، وفى أعقابها، لا تدمر ما يستطيع الطب أن يصنعه، كما أنها لا تؤثر نوعاً من الطب على غيره، وكل ما تحاوله حقاً آخر الأمر هو تقديم دراسة لم تلابسها الموضوعات المثالية، لشروط قيام معرفة ما؛ وهى لذلك تمضى قدماً لكى تتجنب النكوص؛ فهى تهتم بالتعارضات، وعلى وجه الخصوص فى مجال الإيديولوجيا.

إن دراسة فوكو تهتم أكبر اهتمام بالإيديولوجيا السياسية للبرجوازية، التى قامت الحرية فيها فى مواجهة التميز. ففى بداية الثورة الفرنسية، بدا أن الأعمال التحررية (الليبرالية) من أجل وضع نهاية للتخصصات المقصورة على فئة بعينها، ومن أجل استبعاد ذوى السلطة فى المستشفيات وفى الجامعة، ومن أجل إعادة المرضى إلى الأسرة بوصفها المكان «الطبيعى» لهم - بدا ذلك كله ملائماً للطريقة التى كانت المعرفة الطبية تتطور بها (فوكو ١٩٦٣، ترجمة ١٩٧٣، ص ٣٨ - ٩). ولكن التحررية (الليبرالية) فى الوقت نفسه، فى استهدافها إلغاء المستشفيات، قد «حالت دون إنشاء الطب العيادى» (ص ٥٢)، ولم تعد المناداة «بالمراقبة والإشراف» على التدريب إلا فى سنوات الحرب، عندما انتشرت الشعوذة؛ وكانت العودة السريعة للمستشفى، لا فى شكله القديم ولكن بوصفه مؤسسة تعليمية، أى عيادة (ص٦٦ - ٩). وكانت دعوى فوكو هى أن العيادة قد ظهرت لا بوصفها «رد فعل»، ولا بوصفها «تقدماً»؛ فما حدث كان بمثابة إعادة التركيب البنائى لموضوعة (الطب فى إطار الحرية) فى سياق تاريخى محدد» (ص ٦٩). وهذه الدعوى تفترض أن العيادة قد ولدت من خلال المطالب المتعارضة لترتبط بالحرية والانضباط. وفى حالة العيادة تبدو هذه التعارضات كما لو أنها حققت الإصلاح. وقد تختلف النتيجة بالنسبة إلى المؤسسات والمعارف الأخرى، فى مجالات أخرى من التعارض، اختلافاً بيناً.

إن الاهتمام بالتعارض يعد نقلة حاسمة ؛ ومع ذلك فإن هذا التحليل لم يؤخذ به فى كتاب *مولد العيادة* The Birth of the Clinic ؛ وكانت النتيجة أن دراسة الطب العيادى Clinical medicine تنزلق كذلك إلى الكلام فى موضوعات مرفوضة. وما يذهب إليه فوكو هو أن العيادة «اضطربت» بعض الوقت بسبب «فجوة أساسية» ؛ فقبل إنشاء العيادة كان لابد من إعادة تنظيم التفكير الطبى (ص ٥١). وقد كانت دراسة فوكو بالغة الاهتمام بالتغيرات التى لحقت «بالنظرة الطبية الفاحصة»، أى بما يمكن أن يراه الأطباء وأن يقولوه. ذلك أن استخدام الأطباء «لشفرات معرفية» جديدة قد مكنهم من رؤية المرض فى أعراضه ومن تقدير النتيجة (ص ٩٠)، فمن خلال نظرتهم الفاحصة أمكن تكشف صورة من المعرفة صارت رؤيتها متاحة للجميع، حتى إن العيادة صار من الممكن أن تصبح مؤسسة تعليمية «لا ينقسم فيها حقل الطب بعدُ بين أولئك الذين يعرفون وأولئك الذين لا يعرفون» (ص ١١٠). لقد استبعدت من العيادة الهيمنة على المعرفة، تلك الهيمنة القديمة المتميزة، وكذلك المسافات المعهودة، الفاصلة بين قاعات الدرس. وهكذا وقعت هذه الدعوى فى خطأ جسيم ؛ لأنها تمنح أشكال المعرفة أسبقية على الممارسات العلمية المؤسساتية. إنها تفترض ـ على وجه الخصوص ـ أن تحول «النظرة الفاحصة» كان مركزاً يدعم تغيرات أخرى فى المكان ؛ وهذا ما أشار إليه فوكو فيما بعد بقوله «فى هذا الصدد لم يكن مصطلح (العناية الطبية regard medical) ... سعيد الحظ للغاية» (١٩٦٩، ترجمة ١٩٧٢، ص ٥٤).

إن أهم شىء إذن فى كتاب مولد العيادة هو الاهتمام بالصراع وإن يكن اهتماماً محدوداً ؛ وهو فى كتاب *الجنون والحضارة* إدراك أسبقية المؤسسات على المعارف. لكن حفريات فوكو فى الستينيات الأولى لم تكن لتحتفظ بهاتين النقلتين معاً، لأن الدراستين كلتيهما قد تحكَّم فيهما بصفة مبدئية خطاب مضاد، ومن ثم أصبح ما يحددهما هو ما ترفضانه، كما أنهما ظلتا قريبتين للغاية منه، ومن هنا فإنهما اصطدمتا بسلسلة من العقبات (لم تستطع فكرة الأساس المعرفى فى كتاب *نظام الأشياء* التغلب عليها). ولأغامر هنا بتقرير ما كان يمكن أن يزيل تلك العقبات : إنه الشعور الأقوى بالصراعات من أجل الحصول على المعارف، وبالصراعات فيما بين المعارف بعضها وبعض ؛ وهى الصراعات الضاربة بجذورها أساساً فى العلاقات المادية الحقيقية.

أما دراسات فوكو فى السبعينيات المبكرة فليست مماثلة لما سبقها ؛ فهى تضيف ما هو أكثر كثيراً من ذلك. وسوف أعرض لهذه الدراسات فى الفصل الآتى، ولكن كتاب *حفريات*

المعرفة هو قبل كل شىء كتاب يشتمل على مراجعة للذات وعلى منطلق جديد فى الوقت نفسه، وأهم ما يميز هذا الكتاب هو اشتماله على دعوى أن الشكل الذى تظهر فيه الخطابات ليس نظامياً* على وجه الدقة، على نحو ما ذهب إليه فوكو فى دراساته السابقة؛ إنه شكل مادى على وجه الخصوص، وهذه الدعوى هى الدليل على تقدم أساسى، حتى وإن كانت تنقلب رأساً على عقب، نظراً لتخلل صدع ما صفحات كتاب الحفريات جميعاً.

مشكلات وخطوات متقدمة

هناك مقال كتبه لوكور Lecourt ينتقد فيه كتاب الحفريات ويقترح كذلك طريقة لقراءته. وهو يذهب إلى أن ما اشتمل عليه هذا الكتاب من أوصاف للخطاب (والمقصود هو الخطابات الجادة أو المعارف) قد لازمه سؤال حاسم، يتمثل «فيما يدركه فوكو من ضرورة تعريف (نظام المادية) فيما يسميه خطاباً» (لوكور ١٩٧٢، ترجمة ١٩٧٥، ص ١٩٤). وهناك أجزاء من كتاب الحفريات تتوافق على نحو ملحوظ مع نظرية الخطاب التى قدمت فى الفصل الثالث، على الرغم من أن اهتمامها بكيفية تغيير الكلمات لمعانيها أقل من اهتمامها بكيفية أن تكون للعبارات هوية.

فى كتاب الحفريات فهمت العبارة على أساس أنها «الوحدة الأولية للخطاب»، وتمت البرهنة على أن أى عبارة «لابد أن يكون لها كيان مادى» (فوكو ١٩٦٩، ترجمة ١٩٧٢، ص ٨٠، ١٠٠). وقد يبدو فى أول الأمر أن الشكل الذى يوضح فيه فوكو هذه المسألة سطحى، حيث إن «العبارة لابد أن يكون لها كيان مادى، ودعامة، ومكان، وتاريخ» (ص ١٠١)، ومع هذا فإن شرحه يمتد إلى أبعد من ذلك. وهو إذ يصنع هذا لا يدع لدينا أى مجال للشك فى أن الكيان المادى قد يكون ثانوياً بالنسبة إلى العبارة، فى حين أن المقصد الذاتى للمتكلم (أى ما يكون فى عقله أو عقلها) هو ما قد يكون له الأهمية حقاً. كلاً، فالكيان المادى «مقوم أساسى» للعبارة ومكون لوحدتها؛ ووحدة العبارة «تختلف وفقاً لمجموعة معقدة من الأنظمة المادية» (ص ١٠٣). (وقد تم تطوير هذه الدعوى تطويراً كاملاً فى الفصل الثالث).

ولكن ربما لم يوضح كتاب الحفريات الكيفيات التى تكون بها الأنظمة مادية. والمؤكد أن المسألة لا تتمثل فحسب فى مجرد أنها أشياء مؤلفة من أجزاء من «المادة» (ص ١٠٣)؛ ففى

* أى لا يتعلق بالمؤسسات أو يصدر عنها وفى إطارها. (المترجم).

وسعنا أن نقول من منطلق مادى إن شكل مادية الأنظمة طبيعى (فيزيائى) ولكنه كذلك اجتماعى، وأنه بهذه المثابة يتشكل من خلال التناقضات المتجذرة ـ آخر الأمر ـ فى العلاقات الاقتصادية الحقيقية. على أن اتجاه فوكو فى كتاب الحفريات، ذلك الاتجاه الذى يطرح جانباً هذه التناقضات، هو أكثر ميلاً إلى التبسيط، حيث تُضم النظم والعمليات الاقتصادية بعضها مع بعض، على أساس أنها تمثل ـ من حيث كونها «غير خطابية» non - discursive ـ ما لابد أن يكون مادياً، وما يمنح الخطابات كيانها. وهذه الدعوى لا تفى على وجه الخصوص بالمراد، ولكنها تكفى للزعم بأن الخطابات تتأسس على نحوٍ ما فى العمليات الاجتماعية، كما أنها تميز بين تلك الأنواع من العلاقات التى تنتمى إلى الخطاب وغيرها من العلاقات «غير الخطابية» التى هى «حقيقية أو أولية» (ص ٤٥). ومن ثم فإن هذه الدعوى تمنح العلاقات الأولوية؛ تلك العلاقات التى «يمكن وصفها قائمة بين النظم، والتقنيات، والأشكال الاجتماعية، إلخ...، على نحو مستقل عن كل خطاب أو عن كل موضوع من موضوعات الخطاب»؛ فهى [علاقات] «أولية» (ص٤٥). وهذه مسألة مهمة حقاً؛ فلم يكن فى وسع أى نظام آخر، أو أى نظام اتخذ من الخطابات ذاتها نقطة انطلاق، أن يشرع فى تبيان كيفية أن يكون للخطابات كيان مادى.

ومع ذلك ففى كتاب الحفريات ضروب أخرى من الجدال هى أخطر من هذا، تحاول أن تجذب النص مرة أخرى فى اتجاه مضاد، وهى تركز على مقولة يبدأ عرضها للمرة الأولى هنا، هى بمثابة ابتكار جديد يبدو مفيداً ولكنه سرعان ما يتداعى؛ إنها مقولة «الممارسة الخطابية». وخلافاً لما جرى عليه فوكو فى دراساته السابقة فإن كتاب الحفريات يصف الخطابات فى عمومها، ويحدث بعض الإصلاحات عن طريق استخدام أمثلة من نوع الحقول نفسها. ولكن محاولة فهم الخطابات على أنها ممارسات لايمكن إلا أن تنحرف بالدراسات السابقة؛ ومن ثم فإننى لن أعلق إلا فى إيجاز على ما لها من آثار، ثم أطرحها ظهرياً. وقد تم إدراج هذه المقولة الجديدة فى كتاب الحفريات للإجابة عن السؤال عن الكيفية التى يمكن بها تحديد أى خطاب. وتتمثل دعوى فوكو فى أن الخطاب يمكن تحديده عن طريق جملة من القواعد؛ وهذه القواعد هى ما يسميه فوكو هنا «الممارسة»، فى استعمال للفظ غريب للغاية. وهذه القواعد تشكل للخطاب على نحو منتظم «مجموعات من الأشياء، أو الأقوال، أو الأفكار، أو الاختيارات النظرية» (ص ١٨١). ومن الأمثلة التى يقدمها، المثل الخاص بالقواعد التى تشكل طرائق التكلم أو «الأقوال» فى مجال الطب العيادى. وتقوم تلك القواعد بهذا العمل عن طريق

تقرير من الذى قد «أعطى الحق» و«الوضع الشرعى» لإصدار التصريحات الطبية، ومن أى «المواقع النظامية» - كالمستشفى والمعمل - قد تصدر التصريحات (ص ٥٠ - ١).

فى هذه الحالة يمكننا أن نفترض أن «القواعد» التى تقرر الحق، والوضع الشرعى، إلخ، قد وضعت عن طريق عمليات اجتماعية خارج الخطاب العيادى، وإن لم تكن عروض فوكو قادرة على إخبارنا بكيفية حدوث هذا. ولكن الاختلاف بين دعاواه يتكشف هنا؛ فهى تتجه إلى القول بأن هذه القواعد «تكمن فى الخطاب نفسه» (ص ٧٤). ومن هنا فإن الطب النفسى إذا كان من الممكن أن يكون معرفة بالجنوح والسلوك الإجرامى فإن هذا لم يؤخذ به فى كتاب الحفريات نتيجة للطريقة التى أنشئ بها الطب النفسى اجتماعياً فى ما هو آخر الأمر وضع طبقى؛ ولكن - على النقيض من هذا - كان الاتجاه الذى أخذ به هو أن ذلك كان نتيجة لأن جملة من القواعد، أى «مجموعة من العلاقات الخاصة»، قد «تم تبنيها لكى تستخدم فى خطاب الطب النفسى» (ص ٤٣). فالخطاب له «قواعده الخاصة فى الظهور» (ص ١٢٠)؛ وهو يقيم صلاته العملية الخاصة بين العمليات القانونية والشرعية والاقتصادية - على سبيل المثال. ومن شأن هذا الجدال أن يوحى بأن الخطابات هى التى توحد بين العمليات الاجتماعية، ولكن هناك مشكلة محدودة تتعلق بهذا الجدال؛ فهو يقلب كل شىء رأساً على عقب، ومن ثم يهمل الأساس المادى للخطابات.

وعلى هذا فإن مشروع كتاب الحفريات هو أقرب إلى الإخفاق؛ فهو يحاول أن يصف ما يسميه فوكو القواعد الكامنة فى الخطاب، على أساس أنها [هذه القواعد] توحد عملياً جملة كاملة من العمليات المتنوعة، وفى هذا تراجُع عن الدراسة الأسبق لتاريخ الجنون، وللبيمارستان، ولخطاب الطب النفسى، بل - بالإضافة إلى هذا - تراجع عن التقدم الأساسى الوحيد فى كتاب الحفريات، أى عن موضوع الدعوى التى تذهب إلى أن الخطابات تتحقق على الصعيد المادى كما تتحقق على الصعيد المؤسساتى. وفى كتاب *نظام الخطاب* **The Order of Discourse** (١٩٧١، ترجمة ١٩٨١)، حيث يعود فوكو إلى محاولة وصف الخطابات بعامة، تبرز بعض الاتجاهات الجديدة، وفى الوقت نفسه يواصل هذا الكتاب التقدم الذى تحقق فى كتاب الحفريات، مستخدماً هذا التقدم بوصفه أساساً لدعوى مثيرة للغاية، لا تتعلق بالقواعد بل بالضوابط التى تؤثر فى الخطاب من خارجه أو من داخله، والمشروع الأساسى، الذى يتطلب التفكير فيه حقاً، يتمثل فى أن هناك عدداً من الضوابط التى تهيمن على الخطاب «لتحرز السيطرة» على «ماديته الرهيبة» (ص ٥٢).

ويبدأ فوكو وصفه فى كتاب نظام الخطاب بمخطط لبعض الضوابط التى تؤثر فى الخطاب من الخارج. وأمثلة الضوابط التى قدمت هى المحرمات، وأنواع المفاضلات الأساسية التى تميز العقل عن طريق إدانة الجنون، أو التى ترفع من سلطان الحقيقة بوضعها فى مقابل ما هو زائف (ص ٥٢ - ٤). وفى عبارة قد توحى بأن هذه الضوابط تقوم أساساً بالرقابة على الخطاب، يسمى فوكو تلك الضوابط «نظم الإقصاء» (ص ٥٥). ومع ذلك فإن عملها لايقتصر على التحريم؛ لأنها تفرض كذلك سلطان العقل والحقيقة. أما أمثلة الضوابط التى تحكم الخطاب من الداخل فهى الشرح، والمؤلف، والحقل المعرفى (٥٧ - ٩). وبالإضافة إلى هذه الأمثلة يحدد مخطط فوكو مجموعة ثالثة [من الضوابط]، تتمثل فى إجراءات «الإخضاع» الخطابى، أو - بعبارة أخرى - فى الطرق المتبعة فى مراقبة من يتكلم بماذا من الخطاب أو يقع فى نطاقه، وفى تصنيفه (ص ٦١ - ٤). وليس لهذا المخطط شبيه فى كتاب الحفريات، من حيث إنه يقدم معنى مختلفاً للكيفية التى يمكن أن تنظم الخطابات وفقاً لها. إنه يطرح فى الواقع سلسلة من القيود التى تؤثر من الداخل أو من الخارج على الخطابات وتُخضع الأفراد لها.

والمهم هو ذلك الفرض الأولى الذى يذهب إلى أن بعض تلك الضوابط تسود الخطاب حقاً «بماديته الرهيبة» (ص٥٢). وعلى الرغم من أن دعوى فوكو هنا لا تتصف بالخصوصية كثيراً، فإن أكثر الطرق عوناً على قراءة كتاب نظام الخطاب هو فهم هذه «المادية» على أساس أنها تشكل جزئياً الصراعات (المتخللة للمؤسسات) التى يتم فيها إنتاج الخطابات بوصفها أسلحة؛ «فكما علمنا التاريخ دائماً، لا يكون الخطاب مجرد ترجمة للصراعات أو نظم الهيمنة، ولكنه الشىء الذى يكون الصراع من أجله وبواسطته» (ص ٥٢ - ٣).

من هنا فإن أهمية الدعوى تتمثل فى تعيين نمطين من العمليات يتم خلالهما إنشاء الخطابات؛ فالخطابات تبرز وتؤدى وظيفتها بوصفها أداة الصراع، كما أن سلسلة من الضوابط تسود الخطابات فى الوقت نفسه وتقيدها. ويقترب هذا التمييز كل الاقتراب من تمييز آخر ويضيف إليه، هو التمييز الذى أدى مهمته على خير وجه فى مقال أ د أ فيما يخص الإيديولوجيات، بين الكيفية التى يتم بها إبراز الإيديولوجيات فى موقف تضاد، والكيفية التى تفرض بها الممارسات السائدة التقسيمات التى تعرض فى حقلها وتضبطه. ولكى نزيد هذا [التمييز الأول] اقتراباً [من التمييز الثانى] فإنه يلزمنا اتخاذ موقف مادى أكثر وضوحاً، ومن ثم فهم الصراعات المحيطة بالخطابات من خلال علاقات التضاد أساساً فى الصراع

الطبقى ؛ أى من خلال التناقضات التى برزت فيها الخطابات المختلفة ، وقد يلزمنا كذلك أن نتساءل حول ما إذا كانت الضوابط السائدة هى كل ما هنالك ، حيث تسود منعزلة عن غيرها ، وربما تطلبت الدعوى شيئاً من إعادة النظر .

ومع ذلك فإنها يمكن أن تنبهنا إلى الطريقة التى تتحرك بها بعض الضوابط السائدة لتمارس السيادة حتى على تداول الخطابات نفسها ، التى تقف فى أساسها مواجهة لما هو سائد . فالقيمة فى المنظور المثالى لما هو حقيقى ، أو شخص المؤلف ، كلاهما يعتمد فى تشكله على دعائم عملية بعينها ، حتى إن صنعة التأليف - مثلاً - بوصفها ضابطاً لتداول الخطاب ، ترتبط بالقوانين البرجوازية للملكية . وهناك دراسة تفصيلية لهذا الموضوع فيما يتصل بالأفلام ، وذلك فى كتاب إيدلمان Edelman ، المسمى *ملكية الصورة* Ownership of the Image (١٩٧٣ ، ترجمة ١٩٧٩) . ولهذه الضوابط آثار كثيرة ؛ منها تشجيع عودة الموضوعات التقليدية إلى النصوص والخطابات التى سبق لها أن شجبتها ، وقد ناقش فوكو هذه المسألة فى مقاله «ما المؤلف ؟» What is an Author? (١٩٧٩ ، مجموعة ١٩٧٧أ ، ص١٣١ - ٦) . ويمكن أن يقال إنها تظهر كذلك جلية فى أقواله المترابطة فى ذاتها ، التى اشتملت عليها كتاباته المتأخرة ، وعلى سبيل المثال فى مفتتح مقاله «الذات والقوة» :

أود - بادئ ذى بدء - أن أقرر ماذا كنت أستهدف من عملى خلال العشرين عاماً الماضية ؛ فلم يكن هدفى هو تحليل ظواهر القوة ، كما لم يكن تطوير الأسس التى يقوم عليها هذا التحليل .

لقد كان هدفى - بدلاً من ذلك - هو إنشاء تاريخ للأشكال المختلفة التى تصنع من البشر فى حضارتنا ذواتٍ . (١٩٨٢ ، ص ٢٠٨) .

وفى الخطاب الذى يتخذ موقفاً نقدياً ، أو يذهب إلى أبعد من هذا فيتخذ موقفاً ثورياً ، يكون إحباط آثار تلك الضوابط ، وإضعاف سيطرتها قدر المستطاع ، أحرى من تجاهلها .

وهذه المجادلات تطرح السؤال بطريقة غير مباشرة عن «دور المثقف» فى الصراعات الخطابية أو الإيديولوجية . وقد ساق فوكو فى مقاله «المثقفون والقوة» Intellectuals and Power (١٩٧٢ ، مجموعة ١٩٧٧أ) بعض الإجابات الواضحة ؛ فهو يرى أن هذا الدور لايمكن أن يكون مجرد دور تربوى ؛ «ففى أحداث الاضطرابات» التى وقعت فى مايو ١٩٦٨ ،

«تبين للمثقف أن الجماهير لم تعد فى حاجة إليه لتحصل على المعرفة» (ص ٢٠٧)، كما أنه - أى هذا الدور - لا يمكن أن يتمثل فى منح الجماهير وعياً صحيحاً يحل محل وعى زائف ؛ لأن «الوعى بوصفه أساساً للذاتية يعد مزية خاصة بالبرجوازية» (ص ٢٠٨). وبدلاً من هذا يذهب فوكو إلى أن دور المثقف يمكن أن يتمثل فى «لون من ألوان النشاط يوجه على نحو مصاحب لأولئك الذين يناضلون من أجل القوة» (ص ٢٠٨). ويمكن فهم هذا الاقتراح من عدة طرق، ولكن فائدته الأساسية - فيما أعتقد - هى وضع الشىء فى الموضع الصحيح ؛ أى افتراض أنه إلى جوار أولئك الذين يناضلون من أجل القوة وفى موازاتهم يمكن للمثقف أن ينهمك فى الصراع لكى يكشف ما هو بالغ الخفاء وكامن فى الممارسات السائدة ويقوضه. وهذا الوضع يذكرنا بما أبرزه ألتوسير فى عدد من مقالاته، من أن الصراع الإيديولوجى والخطابى ليس عملاً مستقلاً بذاته ؛ فالعمل على ما يدعم - وما يضاد - ما يبقى الطبقة العاملة فى موقعها المتدنى عن طريق إخضاعها، يتمثل فى المقاومة والفعل الثورى فى هذا المستوى. وهذا ما يثير سؤالاً آخر حول الدور الذى تقوم به الخطابات فى إخضاع الناس، وسوف أعرض لهذا السؤال فى الفصل الآتى.

وحتى الآن كانت مناقشتى تميل إلى بيان كيف تلتئم كتابات فوكو الحفرية، وقد استخدمت فيها هذه الكتابات من أجل معارضة بعض الموضوعات المثالية، وفى الوقت نفسه من أجل تعيين ما لها (أى هذه الكتابات) من حدود بوصفها خطاباً مضاداً، وسوف يتم تناول بعض النقاط الأساسية التى أمكن الوصول إليها هنا بطريقة مختلفة بعض الشىء فى الفصل الآتى، حيث يتجه الاهتمام الأساسى إلى المسائل الخاصة بالخضوع والخطاب، وسوف يتم استعراض الدراسات التى قام بها فوكو فى السبعينيات قدر المستطاع فيما يتعلق بهذه المسائل على نحو إيجابى ومباشر.